# من تراثنا الحضاري الاصيل

## حديث مع د. يوسف مروه

## جولة سريعة مع الفلسفة والفلاسفة العرب

## أهمية الفلسفة العربية واثرها في الفلسفات الغربية المعاصرة

يسر مجلة «مواهب» ان تسجل الحلقة الثالثة من سلسلة الأحاديث حول التراث الفكري العربي استجابة لرغبة القراء الكرام. ولما كان موضوع الفلسفة بالذات من اهم المواضيع التي تتميز بها وبالتالي تفتخر بها الأمم الحضارية القديمة والحديثة؛ فقد دار الحديث في الجلسة الثالثة مع د. يوسف مروه حول الفلسفة والفلاسفة العرب. وفيما يلي الاسئلة التي طرحناها والأجوبة التي تلقيناها شاكرين:

س ـ كثيراً ما يلفت نظر القارئ في الكتب الفلسفية عبارة

«الفلسفة العربية الاسلامية»

فما هي هذه الفلسفة؟ وكيف نعرفها ونحددها ونقيّمها؟

ج ـ لا شك بأن تعريف الفلسفة العربية الاسلامية ليس من الأمور السهلة على الباحث الموضعي في هذا العصر نظراً لتعديد واختلاف وتناقض الموازين والمقاييس والمناظير التي تقيم وتحدد بواسطتها المواضيع والمفاهيم والآراء والنظرات الفلسفية، والتي قد تشوه او تجرد احيانا المواضيع المراد درسها وتحليلها وتحديدها، من اهم المزايا والخصائص المرتبطة والمتعلقة بها، ولذلك لا بد للباحث المنصف ان يدرس تلك المواضيع الفلسفية بالنظر اليها من خلال نفس المناظير والمقاييس والموازين التي استخدمها الفلاسفة العرب المسلمين انفسهم، وبذلك تكون اكثر إنصافاً لهم واشد تفهماً لإنتاجهم ومواضيعهم ونظرياتهم الفلسفية، ويكون تقييمنا اكثر مصداقية وأقرب للحقيقة المنشودة. فالفلسفة العربية الاسلامية هي مجموعة الانتاج الفكري الذي نما وازدهر في تلك البلدان التي كانت تشكل الامبراطورية العربية الاسلامية من القرن الثامن حتى نهاية القرن الرابع عشر للميلاد وكتب باللغة العربية. (ولا يقع الانتاج الفكري الفلسفي الذي قام به فلاسفة مسلمين، عرب أو غير عرب، باللغة العربية، منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى اليوم ضمن هذا التعريف، ليس لأن لغة الدولة أو الدول الحاكمة كانت رسمياً غير عربية، بل لأنها لا تمت الى العصور الوسطى من حيث البعد الزمني). واطلق المفكرون المسلمون اسم الفلسفة او الحكمة على كل المواضيع التي عالجت المسائل والمشاكل ذات الطابع الكلي الشامل لجميع النشاطات الفكرية الانسانية.

وكلمة «فلسفة» العربية اشتقت او عربت من كلمة «فيلوس صوفيا» اليونانية، وكلمة فيلوس (Philos) تعني محبة وصوفيا (Sophia) تعني الحكمة، فيكون معنى كلمة فلسفة «فيلوصونيا» محبة الحكمة، واما باللغة العربية فتعني المعرفة العقلية. ولم يرتبط استخدام كلمة فلسفة لدى المفكرين المسلمين بعلم معين او بنوع معين من العلوم والمعارف. فقد اطلق اسم الفلسفة على كل العلوم العقلية لتمييزها من العلوم النقلية مثل الصرف والنحو والبلاغة والبيان والعروض والتفسير والحديث الخ.. في حين ان العلوم العقلية تضم الحقول التالية: الإلهيات والرياضيات والعلوم الطبيعية والسياسية والاخلاق والاقتصاد ولا يمكن اطلاق لقب فيلسوف على مفكر اذا لم يكن متقناً اتقاناً كاملاً لكل العلوم العقلية. وعندما يصنف الفلاسفة المسلمون العلوم نراهم يستخدمون كلمتي «فلسفة» و«حكمة» لتادية نفس المعنى، فهي كلمات مترادفة. ونراهم يقسمون الفلسفة (العلم العقلي) الى قسمين:

نظري وعملي. فالفلسفة النظرية تتعامل مع الاشياء كما هي، والفلسفة العملية تختص بأعمال الانسان كما يجب ان تكون. والفلسفة النظرية تنقسم الى ثلاثة أقسام: الإلهيات او الفلسفة العليا، والرياضيات او الفلسفة الوسطى، والعلم الطبيعي او الفلسفة الدنيا. والفلسفة العليا او الإلهيات بدورها تنقسم الى قسمين هامين: علم الظاهرات (Phenomenology) العامة، وجوهر الالهيات (او الالهيات بذاتها)، والفلسفة الوسطى او الرياضيات تنقسم الى اربعة حقول او علوم هي: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، والفلسفة الدنيا او العلم الطبيعي فتنقسم ايضاً الى حقول وعلوم متعددة، كالفيزياء والكيمياء والأحياء الخ.. واما الفلسفة العملية تنقسم الى علوم الاخلاق والاقتصاد والاجتماع والنفس والمدنيات. وحتى يصبح المفكر فيلسوفاً يجب عليه ان يستوعب ويتقن كل هذه العلوم والمعارف.

وبقي هذا التقسيم والتصنيف سائداً بين أوساط المفكرين الغربيين حتى اواسط القرن السادس عشر، حيث

حصل نوع من الانفصال بين العلوم العقلية والتجريبية . وبدأ هذا الانفصال ايام ديكارت الفرنسي وبيكون الانكليزي حيث اصبحت الطريقة التجريبية والتلمسية منطلقاً للعلوم التجريبية ، واقتصرت الفلسفة على العلوم المتيافيزيائية ( الما وراء الطبيعة ) والعقلية والمنطقية وبعدها تشعبت المدارس والمذاهب والنظريات الفلسفية الغربية حتى وصلت الى عصرنا الحاضر . وبالرغم من ان وسائل البحث الفلسفي واساليبه التي تتعامل بها الفلسفة الغربية المعاصرة قد تطورت وتوددت كثيراً ، وقد تختلف جذريا عن وسائل واساليب الفلسفة العربية الاسلامية ، الا ان الفيلسوف المعاصر ما زال كزميله في القرون الوسطى ، يحتاج الى دراسة طويلة واطلاع واسع على سائر العلوم والمعارف في عصره حتى يستطيع ان ينال لقب فيلسوف ، بعد ان يكون قد وضع او عدل أو شارك بوضع أو تعديل نظرية او مذهب فلسفي جديد . وهناك تشابه كبير بين مواضيع فلسفة العصر الحاضر «عصر التحليل» وعصر الفلسفة الإلهية والماورائية التي كانت سائدة في القرون الوسطى . ويبدو ان القاسم المشترك بين العصرين الحديث والمتوسط هو إنشغال الفلاسفة بمواضيع اللغة والتعبير وتحليل الكلام من جمل وعبارات لفهم واستيعاب المعاني والمفاهيم التي ينطوي عليها الكلام . فما اشبه نقاش وجدال فلاسفة هذا العصر بنقاش وجدال فلاسفة المعتزلة والأشاعرة وائمة علم الكلام قبل حوالي تسعة قرون .

س ـ ما هي أهم المواضيع والقضايا والمسائل التي تعرضت لها الفلسفة العربية الاسلامية ؟

ج ـ تبين من دراسة الكتب والمخطوطات التي تركها الفلاسفة العرب والمسلمين ان أهم القضايا والمسائل التي كانت تتمحور حولها الفلسفة العربية الاسلامية هي ما يلي :

١ ـ قضية الكائن ( Being ) والكينونة : وتتضمن هذه القضية خمسة انواع من المسائل تدور حول الكائن ووجوده ومضاده ( اي العدم ) والماهية وانواع الكائن والقوانين الكونية التي تحكم سلوك الكائن مثل قوانين السببية والتعادل والضرورة بين السبب والنتيجة ومستويات او عوالم الكائن مثل عالم الألوهية ( اللاهوت ) ووحدانية الله وعالم العقول ( الجبروت ) وعالم الأفكار ( الملكوت ) وعالم الطبيعة ( الناسوت ) وما ينتج من علاقات تقوم بين عوامل هذه الكائنات مما يتعلق بمصير ومعاد المخلوقات وخلود النفس الانسانية ووحدة الظواهر النفسية والصلة بين الجسم والنفس .

٢ ـ قضية الوجود والماهية ( Existence/Essence ) : وتتضمن هذه القضية المسائل المتعلقة بتحديد الوجود وتعينه ووحدته والبحث عن الماهية والذاتية والموضوعية للأشياء والكائنات بالاضافة الى مسائل الزمان والمكان

٣ ـ قضية الموضوعي والذاتي ( Objective/Subjective ) وما يتفرع منها من المسائل الفلسفية .

٤ ـ قضية الحق والباطل ( Truth/ Error ) : وما يتفرع عنها من المسائل الفلسفية .

٥ ـ قضية الأزلي الدائم والمخلوق في الزمان ( او الخالق والمخلوقات ) ( Eternal/ Created ) : وما يتفرع عنها من المسائل الفلسفية .

٦ ـ قضية المتحول والثابت ( Mutability /Constancy ) : وما يتفرع عنها من المسائل الفلسفية .

٧ ـ قضية السبب والنتيجة ( Cause/Effect ) : وما يتفرع عنها من المسائل الفلسفية .

٨ ـ قضية الضروري والممكن والمستحيل ( Necessary/Possible/Impossible ) : وما يتفرع عنها من المسائل الفلسفية ، وقد شكلت هذه القضايا اللبنات الأساسية التي قامت عليها اعمدة الفلسفة العربية الاسلامية ، وشذ ابن خلدون عن بقية الفلاسفة المسلمين بان نقل الفلسفة الى مواضيع جديدة تدور حول المجتمع والاجتماع والتاريخ .

س ـ من هم اشهر الفلاسفة العرب المسلمين في التراث الفلسفي العربي ـ الاسلامي ؟

ج ـ قبل التحدث عن أشهر الفلاسفة العرب المسلمين لا بد من التعرض باختصار للأساليب او الطرق او المدارس الفلسفية التي انتسب اليها أولئك الفلاسفة . فنقاد ودارسو الفلسفة العربية الاسلامية وجدوا ان المفكرين والفلاسفة العرب المسلمين قد سلكوا واحداً من الطرق الفلسفة التالية .

١ ـ طريقة المشائين او الفلسفة المشائية ( اي اتباع ارسطو ) ومن اتباعها كان الكندي والفارابي وابن سينا وابن باجه وابن رشد وهم يستخدمون طريقة الاستدلال العقلي ( Deduction ) .

٢ ـ طريقة الاشراقيين او الفلسفة الإشراقية ( اي اتباع افلاطون ) ومن اتباعها كان شهاب الدين السهروردي وقطب الدين الشيرازي وهم يستخدمون طريقة الاستدلال والاشراق الروحاني والعقلي .

٣ ـ طريقة العرفان او الفلسفة الصوفية ( اي اتباع اقطاب الصوفية ) ومن اتباعها كان البسطامي والحلاج والشبلي والخبير وذو النون والقشيري وابن عربي وغيرهم . وهم يستخدمون طريقة الكشف .

٤ ـ طريقة الكلام الأصولي او فلسفة المتكلمين ( اي اتباع المنطق الكلامي ) وهم يستخدمون طرق الاستدلال المنطقي على اختلافها . ومن اتباع هذه الطريقة كان مفكرو الفرق الكبرى في الإسلام وهي :

أ ـ المعتزلة ( امثال ابو الهذيل العلاف والنظام وابو عبيدة ومعمر بن المثنى والقاضي عبد الجبار والزمخشري ) .

ب ـ الأشاعرة ( امثال ابو الحسن الاشعري والقاضي ابو بكر الباقلاني والغزالي وفخر الدين الرازي ) .

ج ـ الشيعة الامامية ( امثال هشام بن الحكم والنوبختي والسيد مرتضى علم الهدى ونصير الدين الطوسي ) .

وأما أشهر فلاسفة العرب والمسلمين الذين تركوا اثراً في فلسفات الغرب فهم كما يلي :

١ ـ أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي ( Al -kindus ) ولد في البصرة عام ٨٠١م وتوفي في بغداد عام ٨٦٩م . عرف باسم فيلسوف العرب ، لأنه كان الفيلسوف الوحيد بين الفلاسفة العرب المسلمين من عنصر عربي ، وكان من المتبحرين والمتعمقين بالفلسفة والعلم اليونانيين . وكان اول من حاز لقب فيلسوف الإسلام ، وهو يرى في معرفة الحق كمال الانسان ، ولذلك فهو يخلص للحقيقة ويقدس الحق . وضع الكندي ما مجموعه ٢٣٠ كتاباً ورسالة ، بينها ٢٢ كتاباً في الفلسفة البحته و٩ كتب في المنطق و١٧ كتاباً في الجدليات ومن كتبه المشهورة «الفلسفة الأولى» .

٢ ابو نصر محمد بن محمد بن طبرخان بن أزلخ الفارابي ( Al Farabi ) ولد في تركستان عام ٨٦٣م وتوفي في بغداد عام ٩٥١م . ويلقب الفارابي بالمعلم الثاني ( والمعلم الاول هو ارسطو طاليس ) وترك ما يزيد عن المئة كتاب ، ومن اهم مؤلفاته الفلسفية كتاب المدينة الفاضلة واحصاء العلوم وتصوص الحكم والموسيقى .

٣ ـ ابو علي الحسين بن عبدالله بن سينا ( Avicinna ) :

ولد في بخارى عام ٩٨٠م وتوفي في همذان عام ١٠٣٧م لقب بالشيخ الرئيس وبالمعلم الثالث ، ترك اكثر من مئة وعشرين كتاباً ورسالة في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والمنطق والإلهيات والموسيقى ، وكتب معظم كتبه بالعربية وبعضها بالفارسية ، ومن اشهر كتبه الاشارات والتنبيهات والمبدأ والمعاد وعيون الحكمة والنهاية واللانهاية ، والحكمة المشرقية واقسام الحكمة والنجاة والشفاء والاشارة الى المنطق ، وموسوعته في الطب «القانون» بقيت انجيل الاطباء في جامعات أوروبة مدة خمسة قرون .

٤ ـ ابي حامد محمد الغزالي( Gazalli ) : ولد في طوس ( خراسان ) عام ١٠٥٨م وتوفي في بغداد عام ١١١١م . عرف بعدائه الشديد لفلسفة ارسطو طاليس وأشياعه ، وكان اثره عميقاً في فلسفة العلوم . ترك العديد من الكتب والرسائل . من اشهر كتبه احياء العلوم والمنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة وكيمياء السعادة .

٥ ـ ابي بكر محمود بن يحي بن الصائغ المعروف بابن باجه ( Avempage ) : ولد في سرقسطة ـ ( اسبانيا ) عام ١١٠٥م وعاش في غرناطة ( الاندلس ) وتوفي في فاس ( المغرب ) عام ١١٣٩م . اتهم بالزندقة ومات مسموماً . ترك العديد من الرسائل الفلسفية اشهرها رسالة الوداع وتدبير المتوحد .

٦ ـ ابو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي( Abubacer ) : ولد في واداش عام ١١٠٠م ونشأ في غرناطة وتوفي في مراكش عام ١١٨٥م . بحث في رسائله أهمية العقل في حياة الانسان والمجتمع وناقش فكرة وعملية التوالد الذاتي ، من اشهر كتبه ( اسرار الحكمة الاشراقية ) وقصة حي بن يقظان .

٧ ـ ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد( Averroes ) : ولد في قرطبة ( الاندلس ) عام ١١٢٦م وأصبح قاضياً لأشبيلية ( الاندلس ) ثم قرطبة وتوفي في مراكش ( المغرب ) عام ١١٩٨م . ترك الكثير من الكتب والرسائل التي ترجم معظمها الى اللغة اللاتينية واصبحت تدرس في الجامعات الأوروبية ، ومن اشهر كتبه تهافت التهافت ( الذي رد فيه على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ) والكليات والجامع والحدائق والتلخيص والمقولات والتفسير .

٨ ـ العلامة نصير الدين الطوسي( Tussi ) : ولد في طوس عام ١٢٠١م وتوفي في بغداد عام ١٢٧٤م وكان من اكثر علماء وفلاسفة العرب المسلمين انتاجاً وأوسعهم علماً ومعرفة على الاطلاق ، ولذلك اطلق عليه مؤرخو الفلسفة والعلم لقب «الفيلسوف العلامة» . وقد ترك اكثر من مئتي كتاب ورسالة في الفلسفة والمنطق والأصول والفقه والحكمة والرياضيات ( حساب وجبر وهندسة ومثلثات وقطوع ) والطبيعيات والفلك والهيئة والموسيقى . ومن اشهر كتبه كتاب تجريد القصائد وزبدة الإدراك والجواهر والفرائض والتذكرة في علم البيئة وتحرير الكلام واثبات العقل الفعال واثبات واجب الوجود وبقاء النفس والمطالع الخ .

٩ ـ عبد الرحمن بن خلدون ( Ibn khaldoun ) : ولد في تونس عام ١٣٣٢م وتوفي ودفن في القاهرة عام ١٤٠٦م . ترك موسوعة هامة هي «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» وهي موسوعة علمية تاريخية كبيرة ، تقسم الى ثلاثة اقسام : ١ ـ المقدمة ٢ ـ تاريخ العرب ٣ ـ تاريخ البربر والدول الاسلامية في شمالي افريقية . وقد اجمع النقاد على انه اعظم فيلسوف مؤرخ انجبته الحضارة العربية الاسلامية وانه بلا منازع اعظم المؤرخين في العالم . وهو أول من جعل من التاريخ علماً مستقلاً وجعل كذلك من دراسة الاجتماع البشري علماً مستقلاً .

س ـ ما هي اهم الآثار التي تركتها الفلسفة العربية الاسلامية في فلسفة الغرب وفلاسفته ؟

ج ـ اذا تتبعنا الآثار التي تركها الفلاسفة العرب المسلمين في الأفكار والمدارس الفلسفية الغربية نجد ان اسكندر الهالي وتوماس اليوركي وألبرتوس ماجنوس والقديس توما الاكويني قد تأثروا الى حد ما بفلسفة وكتب ابن سينا ، ونجد ان ألبرتوس ماجنوس قد تأثر كثيراً بابن باجه ، وان القديس توما الاكويني والفيلسوف الكبير سبينوزا بالاضافة الى جان جاك روسو وليبنتز ورنيان قد تأثروا بفلسفة ورسائل ابن طفيل .

ومن المعروف لدى الذين درسوا تاريخ الفلسفات الغربية ان الفلسفة المدرسية المعروفة باسم ( Scholasticism ) والتي سيطرت على الفكر الأوروبي الغربي طوال القرون الثلاث : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، كانت التعبير الغربي الاوروبي عن الفلسفة الرشدية ( فلسفة ابن رشد ) بعد ان ترجمت الى اللاتينية . فقد عاش فلاسفة اوروبة اكثر من ثلاثماية عام على فتات مائدة الرشدية وقد تأثر كبار الفلاسفة المسيحيون أمثال البرتوس ماجنوس والقديس توما الاكوئين وفرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وتوماس هبز وبليز باسكال وسواهم تأثيراً كبيراً بالفلسفة الرشدية ، وكان القديس توما الاكويني من اشد المتحمسين والمدافعين عن فلسفة ابن رشد ، ولذلك سميت الفلسفة المدرسية بعده باسم «التومية الجديدة» ( Neo - Thomism ) تأكيداً على حماسته للرشدية ، واليوم تحمل هذه الفلسفة بالذات اسم «الوجودية المسيحية» بعد ان طورها ونماها فلاسفة معاصرون امثال كير كيغارد وبرديبق وهايديغر وسواهم .

كما ان رسائل كريستوف كولومبس المنشورة تشير الى ان كتابات ابن رشد كانت سبباً في قناعته بإمكانية السفر من أوروبة الى الهند عن طريق الغرب . والملاحظ ايضاً ان مكيافيلي وبودين ولوك ومونتسكيو وهيوم وغيبون وهيغل وداروين ودوغوبينو وماركس وسبنسر ولوبون وجمير وشبنغلر وتوينبي كلهم تأثروا بابن خلدون في دراساتهم وافكارهم وفلسفاتهم الاجتماعية . ويصف الفيلسوف المؤرخ المعاصر ارنولد توينبي ابن خلدون بقوله :

«ان فلسفة ابن خلدون في التاريخ هي بلا شك اعظم عمل فكري من نوعه يمكن ان يقوم به عقل فرد واحد في اي زمان أو مكان» واذا تمعنا بدراسة فلسفات القرن العشرين التي تحمل طابع التحليل وفلاسفته أمثال هايديغر وهوايتبرد وبرغسون ومور وسارتو وهوسرل وراسل وفارتمان وباتنك ووتغنشتاين وكارناب ، فلاحظ ان معظم هؤلاء الفلاسفة المعاصرون قد نقلوا الفلسفة من مواضيع المادة والروح والجسم والعقل والكون والانسان والمجتمع الى مواضيع المنطق والرياضيات والاساليب المنطقية التحليلية للتعبير واللغة وأصبحت بذلك الفلسفة الحديثة متمحورة حول فلسفة اللغة وتحليل الكلام اي باختصار رجعوا بالفلسفة الى حظيرة علم الكلام» العربي الاسلامي . وهم اليوم يريدون بأسلوب جديد ما ناقشه أئمة علم الكلام أمثال واصل بن عطاء رابو حامد الغزالي وابي الهذيل العلاف ونصير الدين الطوسي وسواهم منذ اكثر من الف عام . وهكذا نرى ان فلاسفة القرن العشرين في أوروبة ما زالوا متأثرين بمعطيات وأصول الفلسفة العربية الاسلامية في القرون الوسطى .

مصادر الحديث
1 - Corbin, Henry, histoire de la philosophie islamique, voc.1,Paris 1964
2 - De Boer, Dr.T.J., The history of philosophy in islam, New York 1967
3 - Edwards, Paul, The encyclopedia of philosophy, vol.y, New York 1967 Editor in Chief
4 - Flew, Anthony, dictionary of philosophy, London 1979
5 - McCarthy, B.J. Islamic studies, voc.3, no.4, 1964
6 - Menasce, P.J. De, Arabisches philosohie, bern 1948
7 - Munk, Salomon, Melanges de philosophie juive et Arabe, Paris 1927
8 - O'leany, De Lacy, Arabic thought and its place in history, London 1963
9 - Radhakrishnan, Sarvepalli, history of philosophy, eastern and western, voll1 New York 1953
10 - Watt, Montgomery W. Islamic philosophy and theology, Edinburgh 1962
11 - Zaehner, R. C. the concise encyclopedia of living faiths, Boston 1967

١٢ . د . محمد مصطفى حلمي ، محاضرات في الفلسفة الشرقية ، القاهرة ١٩٣٧
١٣ . د . محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الاسلام ، القاهرة ١٩٤٥
١٤ . د . عثمان أمين ، شخصيات ومذاهب فلسفية ، القاهرة ١٩٤٤
١٥ . مصطفى عبد الرزق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٤
١٦ . مصطفى عبد الرزاق ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، القاهرة ١٩٤٥
١٧ . د . ابراهيم مدكور ، في الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٧
١٨ . يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، القاهرة ١٩٤٩

**********

# تتمة الادب العربي المعاصر

**********

للدكتور ميشال عاصي من عدد ٤٤

يتعذر عليَّ هنا الان ان اقوم بمسح عام لمختلف الاثار التي يتجسد فيها تيار التقليد او الحداثة . كما يتعذر في الوقت نفسه تتبع مظاهر الحداثة في هذا الفن او ذاك ، فضلاً عن تعذر تحديد نسبة الصفة العالمية التي تتوافر في بعض الفنون ، او في آثار بعض الادباء . لكن بوسعنا القول : في صورة عامة ، ان ثمة توجهاً اكيداً نحو العالمية في معظم ما يشتمل عليه تيار الحداثة في الشعر ، والقصة ، والمسرحية ، والنقد وغيره من الفنون . وثمة ولا ريب آثار تشارف العالمية من بعض النواحي والجهات . وقد يكون ثمة آثار على مستوى عالمي مرموق . غير ان السمة الغالبة على مجمل الادب العربي الحديث هي ، في رأيي ، سمة التوجه نحو العالمية لا سمة العالمية . وذلك لان الظروف التي تدفع بالادب العربي ليكون عالمياً حقاً ليست متوافرة بعد ، لا في المحيط الاجتماعي العربي ، حتى في بيئاته الاكثر تقدماً ، ولا في شخصية الادباء الثقافية والانسانية ، حتى بين فرسان الطليعة انفسهم .

هذا الحكم يضطرنا بالضرورة إلى البحث عن مبرراته في نوعية الآثار الأدبية ذاتها ، وفي الظروف الموضوعية التي تحول دون بلوغ التعبيرات الأدبية عنها مرتبة العالمية ، وفي الحدود التي تفرضها تلك الظروف على شخصية الأدب العربي جاعلةً بينه وبين عالميته مسافةً لا يمكن تجاوزها إلا بضرب خارق من الإعجاز .

فمن حيث نوعية الآثار الأدبية الحديثة قلما نجد أثراً منها ، مهما يكن حظه كبيراً من التفرّد والإبداع ، لا يلمح الباحث في جوانبه بصماتٍ من كبار الأدباء العالميين ، لا سيما الغربيين منهم .

أما الظروف الموضوعية والاجتماعية التي تفرض على الأديب العربي حداً لا يمكن تجاوزه لبلوغ المستوى العالمي المنشود إلاّ بضربٍ من الإعجاز ، كما قلت ، فإن أراها كامنةً في مناخات الوضع الاجتماعي العربي من مختلف الوجوه . فهناك التخلف الاقتصادي ، وهناك التخلف الثقافي ، وهناك الاستبداد السياسي ، الذي يجعل التخلف سيفاً فوق رأس الإبداع ، وفوق إرادة التخطّي ، ومحاولات التوجّه نحو التغيير والحداثة .

أقول هذا ولا أجدني مضطراً إلى استثناء أيّ وضع اجتماعي على الإطلاق ، مع تقديري للفوارق النسبية فيما بينها ، ففي كل مكان من العالم العربي الراهن ، تشهد الحريّة الأدبية ، فضلاً عن الحريات السياسية والاجتماعية ، ألواناً من القمع المباشر ، وغير المباشر ، وهي على اختلاف درجاتها ، من القسوة واللين ، تتفق في فرض وصايةٍ فوقية على المجتمع ، وقيودٍ على الأدب والأدباء ، تحول دون التعبير الحرّ عن طموحات الأمة في التقدّم وأحلام أعلامها بالمعاصرة ، وبلوغ المستويات العالمية المرجوّة .

وبالنظر إلى علاقة الأدب بالمجتمع فمن العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل ان نترقّب ، في نطاق التخلّف الاجتماعي والسياسي السائد ، تفتّح براعم أدبيّة تقفز أصولها فوق تربته لتنمو مزهرة باسقة كأنها مغروسةٌ في أرضٍ لا يخالط ترابها من رواسب الجمود وعوائق الاستبداد والتخلف .

يبقى أن نتساءل أخيراً عن الظروف الذاتية للأدباء العرب الذين يواجهون هذا الواقع الاجتماعي والسياسي من حولهم ، وعن موقفهم منه ، وقدرتهم على مجابهته وتغييره ابتغاء الوصول إلى مناخ اجتماعي أفضل ، ومناخ ثقافي أنقى ، يتيحان لهم القدرة على إنتاج أدبي وفني في مستوى العالمية وآفاقها .

الواقع أن كثيرين من حملة الأقلام العربية الطليعية يدركون الموانع التي تحول دون تحقيق ما يشعرون بالقدرة على إنجازه في حقلي الإبداع الأدبي والتغيير الاجتماعي . ولكن كثيرين منهم أيضاً يدركون ، في الوقت ذاته ، استحالة التحرّك الجذري لإزالة تلك الموانع والعقبات . فيفضلون الانسياق في التيار بدلاً من مقاومته ، ويؤثرون ركوب الموجة عوضاً عن معارضتها ، مستسيغين السلامة مع المعالأة ، رافضين الأصالة مع الاحتجاج والمخاطرة . ولعل لهم في مسلكهم التجنبي هذا بعض العذر ، ما دامت الأدوات النقابية ، والمؤسسات النضاليّة ، لا تستطيع بأشكالها القائمة أن تؤمّ